في الجواب على هذا السؤال لا تكفي الاشارة الى المزايا الشخصية للرجل ، وهي كثيرة ·

صحيح انه كان حاد الذكاء ، واسع الثقافة ، شديد الحساسية امام المنعطفات السياسية ·· وصحيح انه تمرس باللعبة السياسية المحلية فاتقنها واستفاد من موقعه وممارسته ليكتشف ، بحس تجريبي مرهف التناقضات السياسية في لبنان ·· وصحيح ايضا ان ثقافته الواسعة اتاحت له ان « يجرد » ممارسته السياسية في نظرية سياسية نجدها مدونة في العديد من كتاباته ، وفي العديد من المطالب الاصلاحية التي تحولت الى مطالب للحركة الوطنية ، وصحيح اخيرا ان تشبعه بمفاهيم الفروسية والوطنية والنبل تلعب دورا في رسم سياسته ·· لكن الاصح من كل ذلك انه كان يقف ، بصورة موضوعية ، في موقع يساعده ، الى حد بعيد ، في ان يقوم بما قام به ·

اولا ـ كان جنبلاط زعيما يمثل على الدوام حالة تصادم مع البنى السياسية للنظام القائم ، نظام الطائفية السياسية · فالنظام الحالي يقنن حجم جنبلاط ويحوله الى زعيم لواحدة من الطوائف غير الحاكمة بصورة مباشرة ، وان كانت من الطوائف التي لعبت دورا حاسما في تاريخ لبنان ·

وبما ان كمال جنبلاط كان زعيما لتيار وطني عريض يقيض عن الطائفة الدرزية، ويأخذ بحكم اتصاله بالقوى الوطنية الاخرى ، احجاما وابعادا غير طائفية ، فأنه كان يرفض على الدوام ان تعود قوانين السياسة اللبنانية لتمسخ هذا التيار الوطني العريض وتعامل قائده معاملة زعيم طائفة وحسب ·

لقد كان كمال جنبلاط حريصا على صفته كزعيم درزي ، وحريصا على قيادة طائفته نحو معترك العمل الوطني ، ولكنه كان احرص ما يكون على الا يعامل بصفته هذه فحسب ·

وكم من العروض انهالت عليه مطالبة اياه بان يكون زعيم طائفة ، وسليل بيت عريق فحسب لكنه كان يرفضها مصرا على ان يكون بالاضافة الى ذلك زعيم حركة تغيير تاريخية ، لا طائفية ، تصطدم ببنى النظام القائم، وتضعها على محك البحث واعادة النظر ·

وليس غريبا الا يجد احد كتاب جريدة « العمل » الكتائبية ما يقوله غداة استشهاد القائد الوطني سوى ان كمال جنبلاط كان اكبر من « الصيغة » وان ثمة املا ضئيلا بالعودة اليها بعد غيابه ·

لم يكن كمال جنبلاط مصطدما « بالصيغة » بما هي نظام محكوم بالطائفية السياسية فحسب بل كان مصطدما بها باعتبارها صيغة انعزالية تقوم اساسا على عزل لبنان عن محيطه العربي وسد النوافذ التي يمكنها ان تسرب اليه رياح